

المحاضرة السابعة: المذهب الشافعي والمذهب الحنبلي

أولاً: المذهب الشافعي

1. مؤسس المذهب:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس، لقب بالشافعي نسبة إلى جده الأول ويقتطع نسبه مع نسب النبي صلى الله عليه وسلم في هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، ولد سنة 150هـ بغزة في فلسطين وتوفي سنة 204هـ بمصر، حيث هاجر والده من مكة إلى فلسطين طلباً للرزق، وما لبث أن توفي بعد ولادة ابنه محمد ابن إدريس، حيث قامت والدته بنقله إلى مكة حتى لا يضيع نسبه القرشي.

أما جانبه العلمي، فقد حفظ القرآن وهو في عمر السبع سنوات، أما سنده في قراءة القرآن فيقول الشافعي: " قرأت القرآن على إسماعيل بن قسطنطين، وكان شيخ أهل مكة في زمانه، قال: قرأت على شبل بن عباد ومعروف بن مشكان، قال: قرأت على يحيى بن عبد الله بن كثير قال قرأت على مجاهد، قال: قرآن على ابن عباس قال: قرأت على أبي بن كعب قال: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم".

كما حبيب إليه علم الأدب واللغة حتى بلغ فيه شأنًا، يقول الشافعي: وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي ... لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَفْصَحَ مِنْ لَبِيدٍ؛ وكلن أرشده شيخه مسلم بن خالد الزنجي لدراسة الفقه والآثار وفي هذا يقول الشافعي: " خرجت أطلب النحو والأدب، فلقيني مسلم بن خالد الزنجي، فقال: يا فتى من أين أنت؟ قال: من أهل مكة. قال: أين منزلك؟ قلت: بشعب الحيف. قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من عبد مناف، فقال: بخ بخ؛ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة، ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان أحسن بك".

وأخذ يقرأ عن علماء مكة حتى أخذ منهم الكثير، ثم توجه إلى المدينة وأخذ عن مالك بن أنس من فقهه، وبقي في المدينة لمدة ستة عشر سنة يأخذ من فقه المدينة حتى وفاة الإمام مالك رحمه الله تعالى، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي: " كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، فانظر هل لهُذين من عوض أو خلف"، وقال أيضاً: " كان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم".

ثم قدم إلى بغداد وأخذ علم أبي حنيفة رحمه الله تعالى من طلابه وأبرزهم محمد بن الحسن الشيباني، ثم عاد إلى مكة المكرمة وكان له فيها حلقة يقبل عليه العلماء وطلبة العلم، ثم عاد إلى بغداد ليجلس إليه العلماء أمثال الإمام أحمد بن

حنبل، وقد أطلق على الاجتهادات التي اجتهد فيها الإمام الشافعي في هذه المرحلة المذهب القديم؛ إذن يمكن القول أن مذهب الإمام الشافعي كان المذهب الوسط بين مدرسة أهل الرأي في العراق ومدرسة أهل الحديث في المدينة. ثم قرر الإمام الشافعي الذهاب إلى مصر من أجل الاطلاع على مذهب الإمام الليث بن سعد، فلما وصل بدأ الناس يأخذون من علمه وفي ذات الوقت يستزيد من مذهب الليث، وبقي في مصر حتى توفاه الله، وقد سميت هذه المرحلة بالمذهب الجديد.

من أهم مؤلفات الإمام الشافعي نجد كتاب "الرسالة" الذي يعد أول كتاب في أصول الفقه، وكذلك كتاب "الأم"، الذي يعد من أهم كتب الشافعي وقد جمع فيه آراءه الفقهية.

2. أصول المذهب الشافعي:

ذكر الإمام الشافعي الأصول التي قام عليها مذهبه صراحة في كتابه الأم والرسالة، وهذه الأصول هي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة والإجماع إن وجد، وإلا فقول الصحابي الذي لم يعارضه قول صحابي آخر، وإن تعارضت أقوال الصحابة أخذ بالقول الأقرب إلى القرآن والسنة أو المطابق للقياس.

3. مميزات المذهب الشافعي:

تميز المذهب الشافعي بعدة مميزات، أهمها:

- الاكثار من الاستدلال بالحديث النبوي الشريف والاكثار من القياس.
- التأثير بمدرسة الحجاز ومدرسة العراق، كون الإمام الشافعي تتلمذ على يد الإمام مالك.
- اتصال الإمام الشافعي بأصحاب المذهب الحنفي، وتعلمه من كتاب الإمام محمد بن الحسن.
- علمه بطريقة أهل العراق والتأثر ببعضه، فقد كان يرى ألا يأخذ طريقتهم كاملة ولا يدعها كاملة، فأخذ منها ما رآه حسنا.
- التوسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما سبقه من المذاهب، وجعل للقياس قواعد وأصول مما جعل بعضا من الحنفية يعدلون عن مذهبهم إلى مذهبه.

4. انتشار المذهب الشافعي:

ينتشر المذهب الشافعي كأحد أبرز المذاهب الفقهية السنية الأربعة في مناطق واسعة، أبرزها جنوب شرق آسيا (إندونيسيا، ماليزيا)، اليمن، شرق أفريقيا، مصر، بلاد الشام، الأكراد، وداغستان. حظي المذهب بانتشار تاريخي كبير بفضل تلامذة الإمام الشافعي، ووسطيته بين أهل الحديث وأهل الرأي، ودعم الدول له، خاصة في العصور الأيوبية. ومن أسباب انتشار المذهب الشافعي:

1. **وسطية المنهج:** مزج الإمام الشافعي بين مدرسة أهل الحديث في الحجاز ومدرسة أهل الرأي في العراق، مما جعله مذهباً متوازناً.
2. **جهود التلاميذ:** نقل تلامذة الشافعي (مثل المزني، والبويطي، والربيع المرادي) المذهب من مصر إلى بقية الأمصار.
3. **تبني الحكام:** لقي المذهب دعماً كبيراً في بعض الفترات التاريخية، خاصة في عهد الدولة الأيوبية التي نشرته في مصر والشام.
4. **التدوين والتحرير:** تميز المذهب بكتب أصولية وفقهية دقيقة (مثل "الأم")

ثانيا: المذهب الحنبلي:

1. المؤسس:

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ولد ببغداد سنة 164هـ توفي سنة 241هـ، وقد نشأ يتيما في بغداد وكانت أمه تحثه على طلب العلم، في سنة 179هـ، بدأ يطلب الحديث النبوي في بغداد إلى سنة 186هـ، ثم بدأ رحلاته العلمية في طلب الحديث فرحل إلى الحجاز واليمن وغيرها من البلدان وأخذ عن الكثير من المشايخ والمحدثين، وقد جلس للفتوى ببغداد سنة 204هـ؛ من أبرز شيوخه نجد سفيان بن عيينة والقاضي أبي يوسف، ومحمد بن ادريس الشافعي.

قال أبو زرعة عن الإمام أحمد بن حنبل: "ما رأيت أحدا أجمع من أحمد بن حنبل، وما رأيت أحدا أكمل منه، اجتمع فيه زهد وفقه وفضل وأشياء كثيرة".

وقال الشافعي عنه: "خرجت من بغداد، فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل".

2. أصول المذهب الحنبلي:

- الأصل الأول: النص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خلفه ولا من خالفه كائنا من كان.
- الأصل الثاني: ما أفتى به الصحابة، فإن وجد لبعضهم فتوى لا يعرف له مخالف منهم فيها فلم يتجاوزها إلى غيرها.
- الأصل الثالث: إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال، حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول.
- الأصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف، إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وقد رجحه عن القياس.
- الأصل الخامس: القياس، وقد قال في أحد كتبه: "سألت الشافعي عن القياس، فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة، أو ما هذا ما معناه"

3. مميزات المذهب الحنبلي:

من مميزات المذهب الحنبلي نجد:

- التمسك بالنصوص والآثار: الاعتماد الكلي على القرآن والسنة الصحيحة، والاحتجاج بأقوال الصحابة، والبعد عن الإغراق في الرأي والقياس.

- التيسير ورفع الحرج: يشتهر المذهب بقواعده الفقهية التي تهدف إلى التيسير، مثل جواز المسح على الجوربين.
- البعد عن الفقه الافتراضي: لا يميل الحنابلة إلى افتراض مسائل لم تقع، بل يركزون على ما يعرض من قضايا واقعية.
- العناية بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: تميز المذهب بكونه مذهب حديث ورواية، حيث يعتبر المسند للإمام أحمد أحد أهم مصادر الحديث.

4. انتشار المذهب الحنبلي:

انتشر المذهب الحنبلي، الذي أسسه الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ) في بغداد، تاريخياً من العراق إلى الشام ومصر، ثم استقر بشكل رئيس في نجد والجزيرة العربية. يتميز بتمسكه الشديد بالحديث والآثار، وشهد انتشاراً واسعاً في العصر الحديث نتيجة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتبني المملكة العربية السعودية له. أما عن عوامل انتشاره:

- الميزة العلمية: الاعتماد الكلي على نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وتقديمها على الرأي.
- الخدمة العلمية: قام علماء الحنابلة، خاصة في الشام والعراق، بخدمة المذهب وتحرير أصوله وتوثيق الروايات.
- الدعوة النجدية: أسهمت الدعوة السلفية في إعادة إحياء المذهب ونشره على نطاق واسع في الجزيرة العربية وما حولها.